نحو إحقاق الفهم - مقاربة إبستيمولوجية لفهم الفهم عند إدغار موران

(Edgar MORIN-1921- ?)

سارة جديد- طالبة دكتوراه -جامعة باتنة 1. الجزائر

الملخص:

إن المتأمل في مجمل الكتب التي ألفت، وفي كل البحوث والأعمال الفكرية العلمية والمعرفية، في جل الميادين وشتى التخصصات يجدها تروم الوصول لتحقيق الفهم،هذا الأخير تحدث عنه الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي المعاصر إدغار موران، في طرح جاد وعميق، مبرزا مفهومه، قيمته، علاقاته التشابكية مع مختلف الفروع الأخرى (الدين، العلم، الفلسفة....) ثم آليات اشتغاله وحضوره ضمن الفكر التعقيدي، أو الفكر المركب، وهي الأطروحة الكبرى التي صاغها ادغار موران وحاول أن ينظر لها ،وينقل صورة متلاحمة ومتكاتفة يكون فيها المعنى مركبا من مختلف العناصر المتفاعلة وغير المتفاعلة، دون اختزال ولا إقصاء، محدثا بذلك إبستيمولوجيا جديدة تدعو إلى تقبل واحتواء الأضداد المتصارعة والى حضور النقيض في كل حالة حتى يتحقق المعنى حسبه، فيتحقق بذلك الفهم الإيجابي المريح، وهو الفهم الأكثر قربا من الحقيقة.

وبهذا يكون تحقيق الفهم هدف وغاية انكب موران على دراستها وفهمها وشرحها ومن ثم تفعيلها وفق منطق السياق المركب ، الذي يستوعب الجميع ويحتضن الكل قليلا كان عدده أم كثيرا، في إطار فضفاض، متسامح ومتراوح، بعيدا عن الاحتقار والاحتكار.

الكلمات المفتاحية الأولى: فهم الفهم ،الافهم ، التعقيدية، ابستيمولوجيا التعقيد، الأضداد، الأنطولوجيا، الثيولوجيا، الأيديولوجيا.

Towards Understanding an Epistemological Approach to Understanding Edgar Morin's Concept

Summary:

The scholar and researcher in all the books and publications of intellectual and scientific studies and knowledge, in all disciplines find them want to reach understanding, the latter (understanding) talked about the philosopher and sociologist Edgar Moran, in his rich and deep thesis, This French philosopher offers us the value and relationship of understanding with various scientific and cognitive branches such as religion, science and philosophy... Edgar explains here the mechanisms of work and there is an understanding in the complex or synthetic thought where this major thesis is a composite image in which the meaning complex and collector of various elements active and ineffective without reduction or exclusion, The contemporary sociologist Edgar Moran has devised a new, different epistemology that embraces the acceptance and containment of conflicting antagonisms and the presence of contrast in every case until meaning is achieved, and thus a comfortable, positive understanding, which is the closest understanding of truth. Thus, the understanding of the purpose of the work of Edgar Moran to study and explain and then make it more effective according to the logic of the complex context, which includes everyone in a broad and large, Where tolerance is far from contempt and monopoly, Indeed, Edgar Moran has been able to establish a new philosophy characterized by polite ambition, which does not arrogate or transcend any speech or logic, not through

oppression or breakage, From this we find that Moran has made complexity a supreme slogan above the intellect and therefore the foundation of the logic of understanding exists and present strongly.

Key words :Understanding ,Epistemology,ideology, concept, Morality, Project ,Contradictory

مقدمة :

لقد اشتغل الفكر الغربي المعاصر بعديد القضايا المتباينة والمثيرة، والتي لم يتفطن لها الفكر الحديث ولا الوسيط ولا غيرهما،هذه القضايا في مجملها كانت ذات قوة ومتانة ودقة وعمق وحتى جسارة وذكاء من ناحية الطرح وطريقة المعالجة،ثم القدرة على التأويل والتنبؤ،فنجد في خضم كل هذا الفيلسوف الفرنسي ادغار موران قد تجرأ على نشر رؤية جديدة ومتفردة أطلق عليها تسمية الرؤية التعقيدية أو إبستيمولوجيا التعقيد، أو نظرية الفكر المركب،وهي تدعوا إلى إحداث سلام و وئام بين المعارف وداخلها، حتى لا يكون هناك ما يصطلح على تسميته بصراع الأضداد،ولا انزواء التخصص، ولا الاكتفاء بنمط واحد من العلوم والأفكار،هذه النظرية كافحت لتصوغ نسيجا مختلف الألوان والخيوط والرسوم،نسيج واحد بديع متين وذو جودة،تتدخل في انشاءه كل المواد، ومجموع الطاقات،وكل القياسات دون استثناء، بهذه الصورة أراد موران للمعرفة البشرية أن تكون،والموضوع الذي سوف تحاول هذه الورقة طرحه ومعالجته، هو مشكلة الفهم وكيفية تحقيقه،وهو أمر في غاية الأهمية بمكان باعتباره مرتبط بالعديد من المسائل الهامة خاصة سؤال المصير،وهي النقطة الأكثر حساسية ، وأن حضوره وغيابه –الفهم– يؤسس إما لقوة المنطلق والمنتهى،وإما الانحراف إلى المنعرج الأسوء إلى المسعى الخطأ.

لا ننكر أن الكثير من الفكري والفلاسفة قد اهتموا بمسالة الفهم وخصصوا لها من وقتهم الكثير،كما لا ننكر جملة النتائج التي توصلوا إليها في مساراتهم المختلفة،لكن نقطة الفيصل والاختلاف التي تميز طرح ادغار موران في هذه القضية عنهم،انه جعل الفهم مرتبط بالمنطق التعقيدي،وقال بضرورة حضور اللافهم داخل الفهم،حتى يتفعل المعنى ويحضر.

والفهم عنده مصاغ بطرق وكيفيات مختلفة ،تتمايز في الشكل تصب في منحا واحد في المضمون منها انه جماع المسائل المتضادة والمتصارعة في أن والمتصالحة في أن معا،وأن تحقيقه بصفة ديناميكية صلبة وقوية ،لابد من العروج لحلقات متضمنة واحتواء بعضها في بعض،وهي عملية مرهقة وشاقة،ولكن أكد لنا ادغار موران نجاعتها والوصول من خلالها إلى نتائج ترضي صاحبها،هو لا يدعي مطلقا صياغة منهج أو طريقة أو نظرية يقينية مضبوطة وصحيحة دائما،بقدر ما نظر لرؤية قادرة على المساعدة في الوصول إلى الأهداف العلمية المعرفية الدينية الفنية الفلسفية....بصورة تقريبية غير يقينية ولا مطلقة.

وعليه فإن هذا المنطلق سيقودنا حتما إلى أن نسطر معالم إشكالية كبيرة متناسلة منها أسئلة صغرى،سنناقش مضمونها من خلال تفريعات ومآلات هذا المقال وهي:

بأي صفة وكيفية يتحقق الفهم وفق منطق ادغار موران؟ ما هي الأسس والقواعد التي يرتكز عليها الفهم ويقوم؟ ثم هل منطلقاته مشروطة بظروف ابستيمولوجية معينة قبل هذا وتلك أم انه لا يتحرج من أي مشرب خرج؟.

ما هي الغايات التي يروم إصابتها؟ و ما حجم انتفاع الفكر الإنساني قاطب بها؟.

كل هذا وأكثر سوف نحاول شرحه وتوضيحه في العرض التالي:

أولا: نحو تحقيق الفهم

يذهب ادغار موران إلى الإقرار بانبجاس أشكال متعددة ومتنوعة من الفهم ،حاولت حاولت بكل ما أمكنت أن تشرح وتوضح مختلف المسائل الغامضة والمتشابكة بطريقة مريحة وسلسة ،تجعل المعنى على ضوئها ينكشف بجلاء أكثر،ويكون في الوقت ذاته ملائم الكيفية لمختلف العقليات ،وأنماط التفكير ،مراعيا ما أمكن وبصورة تركيبية تفاعلية ايجابية ،التباينات الفكرية للشعوب على كافة المستويات الأنطولوجية،الإثنية،الثيولوجية،الايديولوجية...وغيرها،لكن في ذات الوقت يجد انه بالموازاة مع تقدم عمليات الفهم،يتقدم بصورة مرعبة وسريعة اللافهم،تغذيه تيارات ومشارب مختلفة،ينتفخ ويتضخم ويتقوى في كل وقت وحين ،ليقضي على ضده –الفهم– بصورة بسيطة ، منظمة،اختزالية،وكاسحة وتجزيئية وتذريرية ،فنجده في هذا المقام يقول:"بالتأكيد حصل ثمة تقدم بأشكال كبيرة ومتنوعة في مجال الفهم،لكن وبالموازاة مع ذلك يبدو أن اللافهم لازال يعرف تقدما كبيرا".(إدغار موران، 2002، 87)

واضح إذن أن اللافهم وباء مقنع،يعيش مع عالم الفهم في صراع دائم،والأسوء أن الإنسان لا يعي مطلقا خطره الحقيقي،وهذا راجع إلى انه مخفي تحت غطاء مسميات مسالمة آمنة،لا يتفطن العقل الواعي بخطرها الحقيقي،مادام قد تربى على مبادئ محددة تمجد كل ما هو منطقي وبسيط وواضح،وبديهي،ومعتاد وسهل.

فلكي يتحقق الفهم لابد من توفر مجموعة من النقاط سنأتي على ذكرها،ولكن قبل هذا وتلك لابد من الإشارة إلى أن الفهم بوصفه مشكلة تستدعي إلزامية الوقوف عليها بغية الوقوف على عللها واستئصال الأورام التي تنهش قاعدته،قد انقسم إلى قطبين اثنين،قطب كوكبي

يربط بين مختلف العناصر المتباعدة ،وقطب فردي يربط بين العلاقات بين المقربين،الأول يتجسد مثاله في العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان بالمعنى الإتيقي الانطولوجي،في نقطتين متباعدتين جغرافيا وحضاريا....،والثاني نجده في مختلف العلاقات التفاعلية بين أفراد الأسرة الواحدة أو المجتمع الواحد،أو المنطقة الواحدة...

وللفهم كذلك مستويات ،الفهم العقلي أو الموضوعي،وهو ما يتعلق بالتفسير، ونجده بصورة واضحة أكثر في المجال العلمي الدقيق الصارم،الذي يكون في غالب الوقت معتمدا على المنطق والعقلانية،ويحتكم إلى نظام التفسير بالأسباب الواقعية.

وهناك الفهم الإنساني النسبي الذاتي ،وفيه نجد أن التفسير لا يكون كافيا، فيعمد فيه إلى الاجتهاد والإبداع والخيال والتحليل المجرد،وهو فضاء خصب تتفاعل فيه الايديولوجية بمختلف أشكالها،وتتواشج بطرائق ملونة ومرحة.

وبهذا يكون الفهم في معركته الدائمة والمتواصلة بحثا عن السيادة والعموم،يتعرض لشتى أنواع المعيقات الابستيمولوجية،لعل أبرزها هو اللافهم في مختلف أنماطه وتجلياته،وعلى كل المستويات والسياقات.

ثانيا: عوائق الفهم

إن الإنسان في محاولاته المضنية للوصول إلى كنف الفهم،تعترضه جملة من المعيقات،التي تجعل الصورة تصل بطريقة مشوشة ومشوهة ومهمشة،وفي أحيان أخرى لا تصل بتاتا،وفي العموم فان هذه المعيقات تنقسم حسب ادغار موران الى قسمين ،خارجية وداخلية،فأما الأولى فهي تلك التي تكون بسبب كل ما هو خارج عن الذات،كالزيف الإعلامي مثلا ،ونقل معلومة معدلة ومغلوطة،ومن ثم إيصالها إلى المتلقي بهذه الشاكلة المسخة،أو أن يكون هناك صخب أو ضجة أو فوضى خارجية كصوت السلاح أو المدافع في الخارج مما يعيق عملية الالتقاط الممتاز للمعلومة من فم المحاضر داخل المحاضرة عبر الأذن وتخزينها بالطريقة الصحيحة،وأما الثانية –على الصعيد الداخلي– فنستشفها بجلاء في نزعة التمركز حول الذات والعرق والمجتمع،وبالتالي إقصاء الآخر المختلف.

لقد تحدث موران عن هذه النقطة بإسهاب في مؤلفه ثقافة أوروبا وبربريتها،وفصل فيها مؤكدا أن اكبر عماء يمارسه الإنسان ضد نفسه،وفي حق الآخر هو تمجيده لذاته،وجعلها مركز كل

شيء،وإقصاء كل الدوائر التي تتضمن ذاته وتحتويها،مسببا ما يعرف بالبربرية والعنجهية،وهو المأزق الذي وقعت فيه أوربا عندما مجدت ذاتها وتعالت عن كل ثقافة غيرها،معتبرة نفسها الأفضل والأرقى والأقوى والأسمى،بل هي الحضارة الفضلى والأعظم على الإطلاق.

لاشك في أن هذا الفهم الخاطئ قد تولد عنه العديد من الكوارث والويلات التي جعلت البشرية تدفع ضريبتها غاليا،ولا أدل على ذلك من الحربين العالميتين الأولى والثانية،وعشرات الملايين من الأرواح المزهوقة،ناهيك عن الخسائر المادية،التي أكدتها حسابات خيالية،ينبغي أن يعرف الإنسان ان الفكرة اخطر سلاح،وإذا ما غذيت بالطرق التي يراها المتضخمة أناهم،ستتحول إلى بعبع كاسح ،لا يفهم في الاتيقا ولا في الاستيتيقا ولا في الإنسانية شيء.

وعليه فإن عدم فهم الذات كما يرى موان ينجر عنه بالضرورة عدم فهم الغير،لأن الإنسان عندما يمارس مع ذاته عملية إخفاء لعيوبه عنها –الذات– ،وعدم توجيه النقد لها ومعاتبتها،وان كل خطا ترتكبه يتم إما تغطيته،وإقناعها بعدم وجوده ،وإما تجاهله وتهميشه وكأنه لم يوجد البتة ،وفي كل الأحوال فإن هذا النمط من الزيف يشكل هالة سديمية كاذبة تمنع الذات فهم ذاتها،ثم ينتقل العجز والعرج والعوز إلى عدم المقدرة على فهم الآخر،وهنا تظهر المشكلات أسرابا أسرابا،فيشكل حين ذاك ثقافة الكراهية واللاتسامح،فاللافهم نتيجته المؤكدة هي اللاتسامح مع ذواتنا أولا ومع الآخر المختلف ثانيا ،وهذا ما يشير إليه بإلحاح في قوله "عدم فهم الذات مصدر هام لعدم فهم الغير ،فنحن نخفي عن ذواتنا عيوبنا ونقاط ضعفنا،الشيء الذي يجعلنا غير متسامحين مع عيوب ونقاط ضعف الغير".(إدغار موران، 2002، 90)

ثم إن هناك فكرة ثالثة تعتبر في غاية الأهمية بمكان،وهي عامل الفكر الاختزالي،وهو متضمن في العاملين معا الداخلي والخارجي ،هذا الفكر له قدرة كاسحة شاملة مدمرة بل ولبرما هي أخطرهم على الإطلاق،وهذا راجع إلى أن الفهم بوصفه منقسم إلى قسمين العقلي والإنساني ،فهو بحاجة إلى سبل كثيرة ومختلفة ومتضاربة في آن ومتناغمة في آن آخر،يمس جميع الأصعدة دون استثناء ،فالفهم تحت أفق طرح أو رؤية أو مشرب أو توجه أو تخصص واحد فقط هو فهم مبتور ،ناقص وعاجز لا يوثق في مصداقيته ولا في قولته،فالزخم والثراء والتعدد يشكل تعقيدا قويا وصلبا للمعنى،ويؤدي في نهاية المطاف إلى

فهم أفضل من الأحادي بأشواط، بل وهذا هو المطلوب والمرغوب والمقصود لقول ادغار:"فليست السبل الاقتصادية والقانونية والاجتماعية والثقافية هي وحدها التي تيسر طرق الفهم،إننا نحتاج أيضا إلى سبل عقلية وأخلاقية بإمكانها ان تنمي ازدواجية الفهم العقلي والإنساني"(إدغار موران، 2002، 92)

ثالثا:أخلاق الفهم:

إن للفهم أخلاق من اللازم معرفتها والإحاطة بتفاصيلها ،هذه الأخيرة ستضمن لنا نوعا من العيش المتراوح والسلس والرحب،ويؤكد موران على ضرورة فهم عدم الفهم ،كخلق أساسي لفهم الفهم ،لان فهم النقيض بشكل جيد ومتوازن سيؤدي حتما إلى فهم المصطلح المنطلق منه،فثقافة الإقصاء أو الاختزال لا تقدم للمعنى شيء،ولا تضيف للمعرفة أدنى تطور ،ومنه يجب احتواء الأضداد والمتناقضات في جهازنا الفكري ،ويجب استحضارها كلما دعت الحاجة إلى ذلك حتى نصل إلى كنه المطلوب دون خوف و تردد،بل إن هذه العملية تقتضي المواجهة والشجاعة في عرض الأفكار المتضاربة والمتصارعة،وستكون الغلبة في نهاية المطاف للذي غدي بشكل أفضل ،وتمتع باتساع اكبر في الأفق الابستيمولوجي الايجابي والبناء،يقول موران"إن أخلاق الفهم تتطلب منا عدم الفهم"(إدغار موران، 2002، 93)

كما تطرق ادغار إلى جملة الأشياء التي من شأنها أن تعزز الفهم وتنميه منها التفكير الجيد،والذي قصد منه أنه كلما كان الإنسان يتخذ طريقة ايجابية ومنفتحة ومتقبلة للغير دون بتر ولا استخفاف،فهو بهذا يكون في الفلك المطلوب والمؤدي إلى النقلة الفضلى والتطور المرغوب،فالتفكير الجيد هو ذاك الذي يستوعب الفهم واللافهم بصداماتهما المتكررة والدائمة،هو ذاك الذي يصبر على مطارحات العمى العلمى،ويستطيع بعد انتهاء تحدثها معالجتها بالكيفية الحكيمة الهادئة الهادفة وينقيها من نقائصها،وأخيرا فإنه حسب موران فإن التفكير الجيد هو الأساس القاعدي الذي به يتوصل إلى فهم متين ودقيق.

ثم إن هناك معززا ثان هو الاستبطان،ويقصد من وراءه هنا المحاولة القصوى للولوج إلى عمق نفسية الآخر وفهم باطنها المسر،وتجدر الاشارة في هذا الصدد إلى أن الاستبطان هو منهج تابع لعلم النفس ،من خلاله يقوم المعالج النفساني بالاستعانة بجملة من الأسئلة المنتقاة بعناية ،وتوجيهها للراغب في العلاج ،فتتيح له أن ينزل إلى باطنه،وفهم جملة الأفكار التي يخفيها أو يكبتها،ومن ثم يفتح لها باب المخرج لتتسلل إلى العلم البراني،وعليه فإن

ادغار موران عندما اقترح الاستبطان كنوع معزز للفهم ،فلإدراكه للطبيعة البشرية المعقدة ،والجانب النفسي الكثيف الذي يتحكم في توجيه سلوكيات الإنسان ومنع أو إحقاق الفهم،فحسبه من أراد أن يتوسل فحوى الفهم بكل حمولته من الآخر فلابد من استحضار هذا المبدأ وممارسته بالكيفية اللائقة معه.

كما أضاف أهمية الوعي بالطابع المركب للإنسان ،حيث أن الكائن البشري غني ومتنوع ويزخر بالتعقيد ،ولا يمكن على الإطلاق حشره فقط في جانب أحادي فهذا يعتبر انتهاك لحقيقة وجوده ،وخسف لقواه وقدراته،وأكد بأن هذا الوعي يكون من خلال تجسيد نقطتين اثنتين هما في غاية الحساسية ،الأولى متجسدة في الانفتاح الذاتي على الغير ،فمتى وعى الإنسان أنه لا يمل وحده هذا الوجود،وأن هناك من يشاركه فيه ويتفاعل معه سلبا أم إيجابا،تحرر وقتذاك من أغلال النرجسية والعنجهية والعجب ،وانتقل إلى مرحلة فضفاضة مريحة ،وتقبل قولة الغير المختلف ورحب بها تطابقت مع منطقه أم اختلفت ،ومنه يتأسس الفهم ويكون، أما الثانية التي نوه لها فهي إدراج التسامح،بمعنى أن البشرية في تعاملاتها الدائمة والمختلفة مع بعضها البعض لابد من حصول صدامات ومشاحنات،وحتى معارك وحروب بينها،وهذا ما أثبته الواقع والتاريخ،الأمر الذي ولد عداءات وأحقاد وكراهية بين بني البشر ،وسيبقى بمرور الزمن اللافهم سائدا بينها،حتى وان كانت المرامي التي تقررها وتنشدها أي الأطراف المتناحرة قديما طيبة وإنسانية،فالإرث الأسود سيبقى حاجزا معيقا للفهم الصحيح،ومن هذا المنطلق دعا ادغار موران إلى أولوية التسامح وغفران ما قد فات ،فتنقية القلوب من دهاليز فتن الماضي وآلامها بمنطق التسامح ،سيسمح للفهم بأن يتواجد بقوة،فتنضج بذلك الرؤى وتتناغم المعاني وتتقوى الروابط،فتصل فلسفة الفصل الراقية هذه إلى ما يسميه موران بكوكبية الفهم والأخلاق والثقافة ،دون أن يكون احد هؤلاء الثلاثة حكرا على جهة أو منطقة أو دولة معينة ،فالانتروبولوجيا الاجتماعية والثقافية تبين وتؤكد بأن لكل شعب تاريخه وخصوصياته،ولا يجب أن يرشح أي احد نفسه ليكون سيدا عليها ومعلما لها ،يملي ثقافته ويصبها فيه تعسفا ،بل وذهب إلى القول بوجوب أن تتعلم الثقافات المعلمة هي أيضا من الآخر في إشارة منه إلى الثقافة الأوروبية التي فرضت بمنطق القوة والقتل والدمار ثقافتها وفهمها وأخلاقها على كل الأراضي التي احتلتها،فأضحت تابعة لها في كل شيء إلى يومنا هذا،في اعتقاد نرجسي منها بأنها الأفضل والأجدر من يتعلم منها ،وأنها في غير الحاجة إلى أن تأخذ منهم أدنى شيء لقوله"أن الفهم هو في نفس الوقت وسيلة وغاية

التواصل الإنساني ،فلا يمكن أن يكون هناك تقدم في مجال العلاقات بين الأفراد والأمم والثقافات بدون فهم متبادل ،ولفهم الأهمية الحيوية للفهم يجب إصلاح العقليات،الشيء الذي يستلزم بطريقة متناظرة إصلاح التربية".(إدغار موران، 2002، 97)

رابعا: ضرورة الفكر المركب

يجب أن نعلم أن الفكر المركب هو محاولة جسورة لا تدعي النهائية و المطلقية،إنما تبتغي الوصول إلى أقصى مراحلها وتجلياتها، إلى الفهم الصحيح،وتحقيقه وتعميمه على أوسع نطاق،يقول ادغار موران في صدد شرح فكرة التعقيد:"كانت فكرة التعقيد شائعة في المعجم الدارج،أكثر من المعجم العلمي،كانت تحمل دائما بشكل ضمني تنبيها للفهم،وتحذيرا ضد التوضيح والتبسيط والاختزال السريع بشكل مفرط". (إدغار موران،2005، 36)

نفهم من هذا أن مصطلح التعقيد كتنظير كان متواجد على المستوى الدارج الشعبوي،يستعمل في سياقات الفهم ،ومحاولة الوصول إلى الصحيح والمضبوط منه،مع الاحتراس من فخاخ البداهة والوضوح والبساطة والسهولة ،لأنها مضامين براقة تبدو آمنة ومسالمة ،ولكن في المال الأخير هي نفس نوافذ اللافهم التي لطالما هابها الإنسان ،أما التعقيد كممارسة فإنه لم يظهر ويصقل على المستوى العلمي والأكاديمي إلا مؤخرا.

وفي نفس السياق أضاف فكرة الانسجام والانفتاح الابستيمولوجي،وهي التي تنص بإلحاح على إيجاد ابستيمولوجيا تعقيدية تحمل وجهات نظر متعددة ومختلفة ،متباعدة حينا ومتقاربة حينا آخر،قادرة على مقاربة المعرفة البشرية بطريقة احتوائية تقبلية انفتاحية ،وهو ماسماه موران ب"ميتا زوايا نظر" فنجده في هذا السياق يكتب :"إن الابستيمولوجيا في حاجة إلى إيجاد وجهة نظر تكون قادرة على النظر إلى معرفتنا الخاصة كموضوع للمعرفة أي ميتازوايا نظر". (إدغار موران،2005، 36)

خامسا:الفهم بين المعرفة والحقيقة

إن الحديث عن مصطلحي الفهم والمعرفة وعلاقة كل منهما بالآخر،هو حديث متداخل ومتفاعل،باعتبار كل واحد منهما ضروري الوجود داخل الآخر،فنحن لا نستطيع أن نعرف دون فهم ،ثم ماذا سوف يفهم البشر غير المعرفة،وهذا وغيره من الأسئلة الكثير طرحها الفيلسوف اليوناني القديم سقراط "كيف ينبغي للمرء ان يحيا"(مايكل كارنيدرس،19،2001)

وللوهلة الأولى قد يظن القارئ بأن السؤال المطروح عملي براغماتي منهجي،لكن الأمر سيتوضح وينجلي عندما أضاف سقراط "ما استحقت الحياة أن نعيشها إن لم نتأملها جيدا". (مايكل كارنيدرس،19،2001)

في دعوة صريحة منه إلى إدخال الفهم العميق في عملية عيش الحياة ،فمعنى عبارة لم نتأملها جيدا ،لم نفهمها جيدا،وما يبتغي الإنسان من التأمل غير الفهم،بل والفهم العميق الجيد الصحيح،وستعجبك قولة موران"لكي نفهم من نعرفهم خير معرفة ،نجد أنفسنا إزاء مهمة معقدة وصعبة والتي لا تتحقق بنجاح دائما وأبدا،ونقول ما قاله وودي ألن وهو يهز كتفيه:"من ذا الذي يستطيع الزعم أنهم يفهمون حقا وصدقا شخصا آخر،وكم هو مذهل أن يصبح بالإمكان الاحتيال على مثل هذه الأمور". (إدغار موران، 2005، 33)

هذه الرؤية تؤكد أن الإنسان في محاولاته الجسورة والدؤوبة لكي يعرف ويحصل المعرفة قدر المستطاع،فإنه بلا شك سيصطدم بحاجز اللافهم،فليس كل من نعرفهم نفهمهم،فنحن نحاول ذلك ،وقد نحصل منه الشيء الكثير وننجح،وقد لا يتأتى لنا الأمر ولو بالشيء الضئيل فنفشل،وبالتالي فالطرح القائل بأن الفهم ملازم للمعرفة طرح يجب إعادة النظر فيه،ففي هذا العالم الكثيف والمتشابك والمعقد،لا يمكن أن تمنح درجة اليقين لأي مسألة،فكل شيء في حركة وتفاعل وتغيير مستمر،ومن تراه ملازم للآخر لا يعني بتاتا انه متواشج معه،ومتصاف وإياه في المنطلق والمسعى،أوفي الغاية والمآل،.

ولحل هذا اللبس رجح موران فكرة الجمع بين مفهومين خصمين للوصول كنه الحقيقة الواحدة،فلكي تفهم مثلا حقيقة الحب في الوجود،يجب الجمع بين حقيقة المطلق (الله) وفكرة الشيطان ،ونظرية الصراع الأبدي بينهما على المستوى الانطولوجي و الثيولوجي والميتافيزيقي، ومن ثم ستتراءى لك فكرة الحب بفهم جملة التفاعلات والعلائقيات الكامنة والثاوية وراء هذه الثنائية في معادلة طويلة ولكنها مجدية وفق المنطق الموراني :"لفهم حقيقة واحدة ينبغي الجمع بين مفهومين خصمين ،يبدو بأن هناك صراع بينهما،بينما الواقع انه لا يمكن فصلهما ،وهما ضروريان لفهم حقيقة واحدة". (جون فرانسوا دورتيي، 386،2009)

ويدرك ادغار تماما حجم المعادلة التي طرحها بليز باسكال ،وهو الفيلسوف الأكثر تأثيرا في فكره حسبما صرح بذلك في مؤلفه فلاسفة حياتي ،هذه المطارحة تنص على أنه :"ضد حقيقة

مـــا صـــحيحة لـــيس الخطـــأ ،بـــل حقيقـــة أخـــرى مضـــادة". (جـــون فرانســـوا دورتيـــي، 2009،386)،بمعنـــى أن المقـــولات التقييميـــة والتجريحيـــة وأحكـــام القيمـــة عنـــده غيـــر واردة،ومـــن الأفضـــل ألا تكون،لأنـــه لا يـــؤمن بحقيقتهـــا وانوجادهـــا وشـــرعيتها،على أســـاس أن الحقيقـــة والحقيقـــة والمضـــادة هـــي فـــي نهايـــة المطـــاف عبـــارة عـــن أفكـــار ورؤى تعـــود لأصـــحابها،لها مـــا يبررهـــا ،يغـــذيها ويقويهـــا فـــي إطارهـــا الخـــاص بهـــا ،فـــلا يمكـــن علـــى الإطـــلاق إلغائهـــا وإقصـــائها مادامـــت تعبر عن منطق معين .

يبقى فقط معيار قوة الطرح والتأثير والبرهان هو الفيصل في ترجيح إحداها عن الأخرى.

إن هـــذا التوجـــه قـــد عبـــر عنـــه فـــي منحـــى آخـــر الفيلســـوف نيلـــز بـــوهلر بطريقتـــه الخاصـــة حيـــث يقول:"ضـــد حقيقـــة مبتذلـــة هـــو خطـــأ أحمـــق أو ســـخيف،لكن ضـــد حقيقـــة عميقـــة هـــو دائمـــا حقيقـــة ضـــعيفة أخـــرى ". (جـــون فرانســـوا دورتيـــي، 2009،386)فبعبـــارة أخـــرى أراد نيلـــز أن يقـــول مـــا قالـــه كـــل مـــن باســـكال و مـــوران، لا لإقصـــاء رأي الآخـــر وتهميشـــه،الغلبة فقـــط بقـــوة الطرح،مـــادام قـــادرا علـــى المقاومـــة والعـــيش والمواجهـــة ،نحـــن نـــؤمن بكـــل الـــرؤى كيفمـــا كانـــت ،نحـــن نـــثمن الاجتهـــادات البشـــرية يقـــول مـــوران،نحن ننبـــذ التمركـــز حـــول الـــذات وإســـقاط الغيـــر،نحن نـــؤمن بالتعقيـــد كرؤيـــة مطروحـــة قـــادرة علـــى إحـــداث التـــوازن وإحقـــاق الفهـــم ،فالتعقيـــد "لـــيس وصـــفة أقـــدمها ولكنه نداء من اجل حضارة الأفكار ".(إدغار موران،118،2005)

سادسا: الفهم بين العلم والعقل

إذا ســـلمنا كبـــادئ ذي بـــدأ ، بـــأن المنهجيـــة المعتمـــدة عنـــد إدغـــار مـــوران عبـــارة عـــن "...حركـــة علـــى جبهتـــين متباعـــدتين و متصـــارعتين ظاهريـــا، لكنـــي أراهمـــا غيـــر قـــابلتين للفصـــل، ... وبالتـــالي يتعلـــق الأمـــر فـــي نفـــس الوقـــت، بتطـــوير نظريـــة و منطـــق إبســـتيمولوجيا التعقيـــد تكـــون قـــادرة علـــى أن توافـــق و تلائـــم موضـــة الإنســـان" (إدغـــار مـــوران،17،2005) فإننـــا نصـــل إلـــى نقطـــة أساســـية مفادهـــا أن كـــل مـــا يبحـــث عنـــه هنـــا أو هنـــاك هـــو وحـــدة علـــم و نظريـــة التعقيـــد البشـــري الشـــديد جـــدا، ونقصـــد بوحـــدة العلـــم أن تكـــون جـــل العلـــوم المتخصصـــة التـــي عرفهـــا البشـــر و خبروهـــا والتـــي ســـوف قـــد يعرفوهـــا يومـــا مـــا، ينبغـــي عليهـــا أن تتحـــد وتتحـــالف فيمـــا بينهـــا، حتـــى يتحصـــل علـــى صـــورة كبـــرى واضـــحة المعـــالم والتفاصـــيل غيـــر مجـــزوءة ولا ميســـورة، فلقـــد ســـاعد التخصـــص العلمـــي الـــدقيق والكثيـــر علـــى تضـــييع المعـــالم الكبـــرى للإنســـان، وتضـــييعه فـــي متاهـــات متشعبة، ضاعت معها منطلقاته الأساسية الأولى ، وهو ما لا يخدم العلم ولا يساعده البتة.

في العودة إلى المخطط الأول الذي ابتدأ منه الإنسان نجد أن أسمى غاية العلوم هي الوصول إلى نتيجة تساعد الإنسان على الوحدة والترابط، تضيء سبيله، وتقدم له الأفضل في إطار التناغم الكلي ، لكن الذي حدث، كان العكس تماما، إذ توسعت الهوة،و تقوت النزعة الفردانية، وسيطر حب التمركز حول الذات...وغيرها من السلبيات الكثير.

وإذا أردنا الوقوف على أبرز مقومات العلم نجده" ...يقوم في الوقت ذاته على التوافق وعلى الصراع إنه يسير و في الوقت ذاته على أربعة أرجل مستقلة ومترابطة هي النزعة العقلانية و النزعة التجريبية، والخيال والتحقق". (إدغار موران،105،2005)

هذه العناصر الأربعة المتخاصمة تارة و المتصالحة تارة أخرى هي ما يميز العلم الحديث والمعاصر، ويكون له هوية يعرف بها .

ولكي نفهم طريقة تمشيه في التاريخ سيكون لزاما علينا أن نستحضر كل النقاط التي تعاطى معها، و تأثر بها، وأثرت عليه دون إهمال أي تفصيل على الإطلاق، وهو ما يسمى بالتعقيد العلمي والذي يعرف بأنه" حضور اللاعلمي داخل العلمي، الذي لا يلغي العلمي ولكنه يسمح له على العكس من ذلك بالتعبير عن ذاته ". (إدغار موران،118،2005) وهو توجه جديد وجريء في مجال العلوم وخاصة الدقيقة منها، فأن تسمح بحضور عالم الجن الميتافيزيقي مثلا في العلوم الفيزيائية أو البيولوجية، بل مع إيمانك الكلي والقطعي به جالسا إليه مستمعا ومتفهما، فهذا يعد من أكثر الإنجازات البشرية إثارة وتشويقا وموضوعية عبر التاريخ، فحسب موران فإن جماع العلوم المختلفة التوجه والتخصص والتفكر إنما إذا تباحثت فكرة معينة فيجب على كل منها أن تدلي بدلوها وفق منطقها و منظورها، والنتيجة المتوصل إليها فيما بعد ستكون أكثر غنى و زخما من تلك المعالجة من طرف علم/تخصص واحد، طبعا دون احتقار أو تشويش أو تشويه أو إقصاء.

والحقيقة أن هذه الفكرة تعرض لها ديكارت حين رأى أنه" إذا أراد شخص البحث عن الحقيقة بجد فيجب ألا يختار علما معينا فالعلوم مرتبطة بعضها ببعض وليفكر في زيادة الاستنارة الطبيعية لعقله فحسب" (إدغار موران ،21،2009)

أما عن علاقة الفهم التعقيدي بالعقل فإننا نقول أن العقل السليم المعالج بالطريقة الإيجابية التسامحية المنفتحة سيكون ذو الحظ الأوفر و الأكبر في امتصاص الفهم بالكيفية المناسبة

باعتبار الفهم القنديل المضيء لمختلف البحوث و هذا الذي تطرق إليه مارك بلوك حيث قال:" ثمة كلمة تضيء بحثي: الفهم". (إدغار موران ،21،2009) فدون الفهم كل الكلمات كل الأفكار كل الرؤى مظلمة ميتة باهتة ولا معنى لها .

ولأن رحى المعركة اليوم تدور على صعيد الفكر كما يرى موران فلابد للعقل الإنساني أن يتحصن بمسببات الفهم كيفما كانت و لكي نفهم معنى العقل وفق الطرح التعقيدي يجب بدءا أن نعلم أن الحوار بينه – العقل – وبين العالم الخارجي ضروري لتنميته وتطوره، لأن هذا الخارج سيعمل على مقاومته وصد أفكاره ومحاولة إفراغ محتواه، وتخزين حمولة جديدة قد لا تتوافق و مسلماته، ولكن رغم هذا فإنه على العقل أن يواصل الحوار أن يواصل التواصل والالتقاء و التبادل رغم الاختلاف الشديد بينهما وهذا ما يعرف بالعقلانية الحقيقة:" التي تعترف باللاعقلانية وبالحوار مع غير القابل للعقلنة". (إدغار موران،2005 ،117)

وللإشارة فقد فرق ووضح إدغار بين كل من مفهوم العقلانية والعقلنة، الأولى هي ذاك المتفهم لنفسه وغيره، المنفتح على الآخر المختلف، والمتقبل لكل غريب مضاد ومناقض في إطار فضفاض متراوح، أما العقلنة فهي المنطق الذي يدعي العقلانية، المنغلق على ذاته والمتمركز حولها والممجد لها، ينبذ الآخر، يقصي الاختلاف، يختزل الأفكار كلها فقط في صحة أفكاره، غير قابل للنقاش و يؤمن بمنطق القوة والتعسف.

يقول في هذا الصدد:" إنني أعتبر نفسي عقلانيا ولكني أنطلق من الفكرة التي مفادها أن العقل تطوري، وأن العقل يحمل في داخله عدوه اللدود إنه التبرير العقلاني الذي قد يخنقه...". (إدغار موران،2005 ،117)

ولأن العقل تطوري فهذا يعني أن ماضيه يختلف عن حاضره، وهذا الأخير مختلف عن مستقبله، هذه الصيرورة تمنح "كل فرد يعيش العديد من الحيواة، حياته الخاصة و حياة أقربائه، وحياة المجتمع، وحياة الإنسان، وحياة الحياة ". (إدغار موران، 2009، 88) وهذا ما يسمى بمبدأ الترحل.

فالإنسان يترحل من مكان إلى آخر، يكسبه هذا الفعل نوعا من الفهم العميق والمعقد الذي يجعل عقله قادرا ومستعدا لمواجهة تغيرات الحياة والتواءاتها، فالعقل في نطاق الزمن ينضج ويتوعى ويفهم أكثر معنى التعقيد ومعنى الفهم الصحيح ’عبر رحلاته المختلفة التي من خلالها يتعلم الجمع والتركيب و الإستبعاد قدر المستطاع :" يجب تجنب الإنغلاق داخل فكر

ثنائي، أي فكر ملبد بقطب اهتمام واحد على حساب الأقطاب الأخرى. (إدغار موران ،2007 ، 56)

خاتمة :

قبل ان نختم بمجموعة من النقاط الاساسية التي خلصنا اليها من خلال هذه الورقة،فإني اود القول بان ادغار موران قد عاش وعايش حالات فكرية صعبة ومريرة وهويحاول فهم الفهم،وان اعماله لعقله بهذه الطريقة المضنيةانما تنم عن حياة فيلسوف عرف الفلسفة فعمل بها،وتعمق بموجبها في اعماق مسائل الحياة ولاعجب في ذلك لان:"الفلسفة بلا شك،اقرب الى انتكون شكلا لجواب ،من ان تكون مذهب معارف،انها وهي المشدودة نحو الازل،مجرد جواب رجل على همومه،او مجتمع على حاجاته،غير ان علم العصر وفلسفته لم يجيبا على غصة الانسان،ولا حتى على حاجات فكره". (بيير دو كاسييه،189،1933)

من خلال ما تقدم نخلص إلى النقاط التالية :

_ عمل ادغار موران على خلق وإنشاء نظرية حرة ومنفتحة، تبحث عن المعنى وتصوغه بكيفية تركيبية معقدة، حاملة في ذلك ما أمكن من الذخيرة العلمية المعرفية من شتى التخصصات، وهو بهذا التوجه أراد أن يقول أن الرؤية التعقيدية أو نظرية الفكر المركب طموح فكري يسعى لضم المركز والهامش من العلوم والمعارف دون استثناء، بغية الوصول للمحطة بأقل الأضرار الممكنة، وبهيئة تقارب الكمال والاكتمال، بعيدا عن التسقيف والتحديد.

_ أكد موران أن رحلة البحث عن المعنى ما هي إلا ترجمة لعبارة رحلة البحث عن الفهم ،الفهم الصحيح الواثق المقترب من الحقيقة بأقصى درجاته، إنه يتحدث عن الفهم المكافح الجسور، الذي دأب صاحبه طيلة حياته يتوخاه ويناشده ولأن رحى المعركة اليوم تدور على مستوى الأفكار كما يقول صاحب كتاب الفكر والمستقبل –مدخل إلى الفكر المركب–، فإن هذا الصراع وبلا شك ستعتليه الفوضى والضبابية، وسيفتقد الفهم المطلوب في خضم كل هذا، وعليه فقد حمل ادغار على عاتقه مهمة الفرز والإضاءة والتنوير، أراد أن يفهم شروط الفهم وكيفياته وآليات اشتغاله، وتقديمها بصورة واضحة وسلسة، حتى ينكشف للمرء ما كان يعتقده صحيحا وأكيدا ومركزي التواجد.

_ هناك نظام داخل الكوسموس الذي نعيشه وننتمي إليه ،وكل شيء قابع فيه له أخلاق تحكمه، ومن الضروري أن يتفطن لها ويطبقها، كذلك يكون بالإسقاط المنطقي للفهم أخلاق،ذلك أن الإنسان في مسعاه بلوغ الحقيقة، يتحصن بعدة محددة حتى يبلغها بالطريقة الصحيحة، فوضح موران أن خلق الفهم يتجسد في تقبل اللافهم واحتواءه، انه يجلس إليه مستمعا بأدب، هو لا يقصيه ولا يحتقره ولا يرميه إلى الهامش، وإلا كان اللافهم بنفس نرجسية وعنجهية اللافهم، هو يحتويه ويحتضنه حتى يؤكد في نهاية المطاف قوته أمامه، فتكون الغلبة لخلق الفهم لا لنقيضه، فمن منطلق هذه الصورة يتأتى للإنسان أن يختار الأفضل والأقوى والأجدر لبلوغ أهدافه وتوجهاته،"وستظل الصيرورة تحبل على الدوام بمجازفات ومخاطر وتقلبات،لكن يمكنها ان تنطوي كذلك على قدرات ابداعية،وتطورللفهم والادراك والحلم والصلاح ووعي انساني جديد".(إدغار موران،2012، 173)

_بحسب موران فإن الإنسان لا يصل إلى كل ما قد تم ذكره إلا بإعانة من الفكر المركب تنظيرا وتطبيقا،ذلك أن النموذج التعقيدي يعمل على اتحاد جملة الفهوم المختلفة في شتى التخصصات وفي كل الميادين، رابطا إياها وجاعلا منها حزمة واحدة تروم تقديم حقيقة ما حول معرفة معينة، بتعاون وتضامن من مختلف تلكم التخصصات،وعليه يكون الفكر المركب طرحا هادفا مرنا وخفيفا، يسوق الفهم نحو ملاذه الصحيح، دون انعطاف خاطئ وأن كل ما يحدث اليوم في العالم من مشاحنات فكرية وتطرفات وتشددات، إنما تفسيره أن كل طرف وجهة ترى نفسها مالكة الحقيقة وحاضنتها،"اننا نحيا اليوم تحتسلطان مبادئ الفصل والاختزال والتجريد،التي تشكل في مجموعها ما اسميه بمنظومة التبسيط"(هكذا تكلم موران)، وأن الآخر هو المخطئ والمظل، ولو أن كل واحد منها حاول أن ينظر من باب التعقيد الذي نظر له موران، لوجد أن لكل طرف جانب معين من الحقيقة، وأن في انضمامه إلى كل منها ستكبر الحقيقة أكثر، وستكون اقرب إلى الاكتمال منها لو بقيت متشضية ومبتورة.

_ عندما نتحدث عن مقولات جذرية في فلسفة ادغار موران كالتعقيد والعقل والحقيقة والعلم والمعرفة التعقيدية، ثم نتتبع تمشيها وعلاقاتها المختلفة بين بعضها البعض أو بين غيرها من المقولات والأسئلة، فإننا سنلحظ أن جماعها ملتحمة تود بناء صرح الفهم بكل دقائقه وتفاصيله وحيثياته، فالفهم حالة حضور قوية، والفهم الصحيح حالة حضور قوية شبه معممة، تلاءم المعضم وتحتويه، تضمن له الاحترام في منطقه وطرحه .

_الفهم عند موران غاية قصوى اسمى ذات أولوية ملحة، إنه الخطوة الضامنة للسلام والهدوء في حياة البشرية،هو الملاذ الأخير الذي به يحدث الانسجام وتتناغم الاختلافات والمتناقضات، الفهم طبيعة غائبة ربما تكون مخبؤة، ربما مهمشة، ربما مشوهة، والاسوء أن تكون مقتولة ،إن دعوة موران دعوة صريحة، وصرخة مدوية لتحصيل الفهم وإحقاقه على السريع العاجل، فبلفهم الصحيح نكون، وبه نعيش حالة الأتراكسيا، فلا مستقبل للبشرية إلا بتطبيق التعقيد الموصل إلى الفهم الوقور، والمؤدي أخيرا إلى عمق السلام.

قائمة المصادر والمراجع

1- إدغار موران:الى اين يسير العالم:ت:احمد العلمي،الدار العربية للعلوم ناشرون،ط1،2009.

2- إدغار موران:الفكر والمستقبل:مدخل الى الفكر المركب:ت:أحمد القصوار ومنير الحجوجي،دار توبقال للنشر، ط1 ،2005.

3- إدغار موران:النهج ،انسانية البشرية-الهوية البشرية-:ت:هناء صبحي:هيئة ابو ظبي للثقافة والتراث،ط1،2009.

4- إدغار موران ، تربية المستقبل، المعارف السبع الضرورية لتربية المستقبل: ت:عزيز لزرق ومنير حجوجي، دار توبقال للنشر والتوزيع،ط1،2002 .

5- إدغار موران:ثقافة اوروبا وبربريتها،ت:محمد الهلالي،دار توبقال للنشر،ط1،2007.

6- إدغار موران: هل نسير الى الهاوية:ت:عبد الرحيم حزل،افريقيا الشرق،ط1،2012.

7- بيير دو كاسييه:الفلسفات الكبرى،ت:جورج يونس،منشورات عويدات،بيروت،ط3،1933.

8- جون فرانسوا دورتيي:فلسفات عصرنا:ت:إبراهيم صحراوي، منشورات الاختلاف،ط1،2009.

9- مايكل كارنيدرس:لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة؟- الثقافات البشرية:نشأتها وتنوعها،ت:شوقي جلال، عالم المعرفة،299،القاهرة،2001.